إمامة بنت الحارث

صاحبة أشهر وصية عربية

اشتهرت إمامة في زمانها بأنها ربة الفصاحة والرأي.

كانت معروفة بحكمتها في كل الأمور، يقصدها الناس في الأزمات فتشير عليهم بالآراء التي تنفعهم، وكانت في ذكائها وبلاغتها مضرب الأمثال.

ولعل التاريخ لم يضن علينا، حين ترك لنا الوثيقة النافعة الشهيرة، والتي وجهتها إمامة إلى ابنتها، تبصرها فيها بمفاتيح السعادة الزوجية، فإن ما احتوت عليه هذه الوثيقة من وصايا جليلة: ليدل ــ بما لا يدع مجالاً للشك ــ أن هذه السيدة قد تميزت في زمانها بالحكمة والنبوغ في الرأي والقول.

جاء الحارث بن عمرو ملك كندة يخطب ابنتها أم إلياس بنت عوف بن محلم الشيباني، فزوّجها أبوها منه. ولكن قبل أن تفارقهم الابنة إلى ديار زوجها، انفردت بها أمها إمامة، وأخذت توصيها أن تحسن معاشرة زوجها، وألا تغتر بنفسها عليه، ولا تثقله بالأعباء المادية، بل تكون له نعم السند، فتحافظ على صحته وأمواله

بالاقتصاد في المال والتدبير، وبتنظيم أوقات طعامه، وضمان الهدوء في نومه واسترخائه وأن تحذر كل الحذر: من إفشاء أسراره، أو السخرية من آلامه، والتلهي عن أحزانه.

وقد كانت وصية إمامة لابنتها: هي الورقة السحرية التي ضمنت لها السعادة الزوجية، فلقد أغرم بها زوجها، وأصبح لا يجد في العالم من هو أفضل منها، أو حتى كفؤاً لها، فزاد إخلاصه، وتمكن حبها من قلبه، وأسبغ عليها من العطف والطاعة، والوفاء والإكرام: ما قد أصبح مضرب الأمثال، أما هي فقد ولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

ولقد رأيت أن أورد نص الوصية، لما فيها من منفعة كبيرة، وخبرة بالنفس البشرية عظيمة.

نص الوصية

"يا بنيتي: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، إنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها أو شدة حاجتهم إليها: كنت أنت أغنى الناس عنه، لكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه

عليك رقيباً، ومليكاً، فكوني له أمه، يكن لك عبداً وشيكاً، يـــا بنيـــة احملي عني عشرة خصال تكن لك ذخراً وذكراً:

الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعـــة، والتعـــهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك على قبيـح، ولا يشم منك إلا طيب ريح، والكحل أحسن الحســـن، والمـــاء أطيـــب الطيب، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامـــه، فـــإن حـــرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفـــاظ ببيتـــه ومالـــه، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمـــال حســـن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير، ولا تفشي لـــه سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحـاً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى مـــن التقصـــير، والثانية من التكدير، وكوني له أشد ما تكونين إعظاماً، يكن لك أشـد ما يكون إكراماً، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن لك هو أطول مـــا تكونين له موافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى مـــا تحبيـــن، حتـــى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هـــواك، فيمـــا أحببـــت أو كرهت، والله يخير لك".